



يُعد الشكل الامبراطوري للحكم شكلاً سابقاً على الحداثة والدولة الأمة. لهذا كانت الامبراطوريات التي استمرت في زمن الحداثة والدولة الأمة معاقة ومتاخرة وموسومة بمواصفات تعين إعاقتها وتتأخرها هذين. فالنفوذ الخارجي والاحتلال المباشر لا يعودان يعكسان تقدماً في داخل البلد الامبراطوري الذي ينخر التفسخ والاهتراء صلبه الاجتماعي اقتصاداً وتعلماً وعلى سائر المستويات.

كذلك يحتل الإنفاق على الجيش والأمن حصة متضخمة من مجمل الإنفاق العام فيما تحظى المؤسسة العسكرية والأمنية بموقع مركزي، إن لم يكن الموضع المركزي، في السلطة.

وفي هذا المعنى تلوح الحياة الديموقراطية في الإمبراطوريات المتاخرة مُصادرة أو ممنوعة لا يتسع لها المكان. فوق هذا، وبسبب التداخل الذي تنهض عليه الامبراطوريات بين الداخلي والخارجي، المتروبول والمستعمرات، غالباً ما يأتي انهيارها نتيجة حروب إقليمية أو عالمية. ففي استثناءات قليلة كالامبراطورية البرتغالية التي أنهاها انقلاب ذو أفق ديموقراطي أو اسْط السبعينات، سقطت الامبراطوريات العثمانية والهيسپورغية بنتيجة الحرب العالمية الأولى، ثم سقطت الامبراطورية النازية الألمانية، التي كانت قيد البناء، بفعل الحرب العالمية الثانية، وأخيراً جاءت الحرب الباردة تسقط الامبراطورية السوفياتية التي كانت قد أجلت قسرياً سقوط الامبراطورية القيصرية مع الحرب العالمية الأولى.

وفي النهاية، فإن سقوط الامبراطورية لا يشبه سقوط نظام عادي من الأنظمة لمصلحة نظام آخر. هنا تمت التحولات لتطاول المجتمع والخريطة نفسها: فسقوط الامبراطوريات العثمانية والهيسپورغية فسّخهما وفتح الباب للدول الأمم الكثيرة، كما انهارت «الكتلة الاشتراكية» وانكمش الاتحاد السوفيتي ذاته إلى فيدرالية روسية بنتيجة انهياره الامبراطوري. ومرة أخرى نجت البرتغال، بعد تحريرها مستعمراتها الأفريقية، من مصير كهذا تبعاً لوحدة مجتمعها وتجانسه اللذين تعززا باعتناق الديمقراطية واحتضان الديموقراطيات الغربية لها.

ولا يخطئ واحدنا إذ يقول إنّ سورية كما صاغها حافظ الأسد وهندسها تحظى بالكثير من المواصفات الامبراطورية، أكان ذلك تأثيراً في الخارج والمحيط، أم تخلعاً في الداخل والصلب الاجتماعي، أم إعاقه عسكرية وأمنية لأي إقلاع ديموقراطي.

لكن الفارق أن الثورة السورية تنوب مناب الحرب الإقليمية أو الدولية التي عادةً ما تتكلّل إزاحة النظام الإمبراطوري. هكذا يحصل من التدخل هذه الأدنى الذي يزيد فوضى الصراع وتضاربه من دون أن يحصل التدخل الذي يحمل الخلاص. وقد رأينا، مثلاً، في التجربة العراقية للبناء الإمبراطوري كما رعاها صدام حسين، وقادته إلى حرب على إيران وغزو الكويت، كيف أن تحالفاً دولياً ضخماً في المرة الأولى، ثم تحالفاً أصغر في المرة الثانية، قاما بهذه المهمة نيابة عن الضحايا العراقيين.

بلغة أخرى، تكتسب الثورة السورية طابعها الملحمي والبطولي من حقيقة قيامها بما يناظر عادة بـأحلاف دولية جباره. غير أنها، وللسبب ذاته، تختزن وتولّد ما لا حصر له من تنافضات، تعقيداً وطولاً وتدميرأ ومصاعب. واليوم تتنافس هاتان السمتان الحاكمتان لتلك الثورة تنافساً نلقاء في كل واحدة من الضربات التي تكيلها لنظام مجرم وفي كل واحدة من الضربات التي يكيلها لها، بحيث يبدو تدمير حلب وسائر المدن شهادة رهيبة على جيولوجية الحدث السوري. فما من شيء في الواقع والأفكار سيبقى كما كأنه من قبل، لأن تحول سورية من مصغر إمبراطوري إلى جمهورية ديمقراطية ليس بالأمر البسيط أو العادي. إنه حوار دموي مع التاريخ والجغرافيا ومع الكثير من الكذب الذي تراكم على جنباتها.

المصادر: